التكسب بالشعر

تاليف الدكتور جلال الخياط

منشورات دار الآداب ـ بيروت

لا يسعنا الا اكبار الجهود التي بذلها الدكتور جلال الخياط في وضع رسالته «التكسب بالشعر» . يكفي ان نذكر انه استنفد مصادر البحث بمراجعة اكثر من خمسين مصدرا بين قديمة وحديثة ، وذكر في الهوامش مصدر كل من اقتباساته العديدة ، جامعا كل ما امكنه جمعه حول الموضوع من اخبار ونوادر واحكام وتعليقات ، وزود الكتاب بفهرس كامل للاعلام مستوفيا بذلك شروط البحث العلمي .

وقد استعرض شعراء المدح ابتداء بالاعشى وانتهاء بالمتنبي وبعض شعراء المدح المعاصرين ، فأورد نماذج من شعرهم المكسبي مضيفا آراء معاصريهم او رأيه الخاص وآراء بعض معاصرينا فيهم

الا ان القارىء الذي يجد في مطالعة الرسالة متعة وفائدة قد يخطر له ان يسأل لماذا كثر المدح في الشعر العربي هذه الكثرة الهائلة ، ولماذا تحددت اغراض الشعر بالمدح والرثاء والهجاء والغزل فقيدت الشعراء تقييدا حتى استغرقت القسم الاكبر من ديوان كل منهم . هذا السؤال وما يتصل به لا ينال اهتماما كافيا لدى المؤلف. كما ان استخدام شعر المدح ، القديم منه والحديث ، قد يكون من صنف القول الجارف . ففي المدح قصائد جيدة جديرة بالخلود منها «بانت سعاد» لكعب بن زهير في مدح النبي ، بائية النابغة في الفساسنة ، بعض مدائح ابي تمام والبحتري والمتنبي والبوصيري ، التي عدل فيها اصحابها عن اسلوب الاقدمين وادمجوا في مدائحهم الحكمة والوصف الطريف المركز .

ان التكسب بالشعر ، كالتكسب بغيره من الفنون الجميلة ، وجد عند جميع الشعوب لان الفن ارتبط منذ نشوئه بخدمة الجماعة كما بخدمة الفرد ، وكانت مهمة الفنان التوفيق بين الغايتين فلا يضحي باحداهما في سبيل الاخرى . ويختلف الفنانون بمقدار نجاحهم او فشلهم في هذا التوفيق .

لقد جنى على الشعر العربي ظاهرتان . الاولى محدودية الانواع الادبية التي عالجها . فقد جهل العرب النوعين الملحمي والتمثيلي اللذين عدهما اليونان ارفع انواع الشعر لما يتضمنان من فلسفة اجتماعية . وقد اتيح للشاعر اليوناني ان يتكسب بما ينتجه من شعر تمثيلي او ملحمي من غير ان يستعبد لممدوح ويقف عليه شعره كما فعل اكثر شعراء العرب . لان كلا الشاعرين الملحمي والتمثيلي يخاطب الجمهور لا الفرد .

اما الظاهرة الاخرى التي جنت على الشعر العربي فهي سيطرة التقليد على الشاعر وجهله ان الشعر خلق لا تقليد ، كما ان الحياة تطور لا جمود . من هنا تحدد الشعر العربي بنوع واحد واغراض تقليدية هي المدح والهجاء والغزل والرثاء وما يشتق منها .

وقد لا نكون مخطئين اذا قلنا ان شعر المدح والهجاء يحيا في عصرنا تحت اسم جديد هو الدعاية والاعلان . وكما توجد الخطب الدعائية والمقالات والابحاث والتواريخ والقصص الموجهة التي يقصد بها بث المبادىء السياسية والاجتماعية التي يجسدها افراد نابهون، كذلك يوجد شعر الرفض وشعر النضال العقائدي والقومي وسائر الانواع التي تجاري شعر المدح والهجاء في الهدف وتختلف عنه قالبا وموضوعا .

كان المدح والهجاء قديما اهم وسائل الدعاية اما اليوم فقد تنوعت الوسائل وتلونت وازدحمت والغرض واحد .

روز غريب

ملاحظات على الموسوعة العربية الميسرة

تأليف الدكتور علي جواد الطاهر

في اعقاب عدوان الخامس من حزيران الذي تعرضت له الامة العربية ، اثيرت مناقشات كثيرة بين الادباء والباحثين ، حول الدور الذي تلعبه مؤسسة فرانكلين في حياتنا الثقافية والادبية ، وتوزعت الاراء بين مشكك محذر وداع لمقاطعة هذه المؤسسة والاعراض عن التعاون معها بالنسبة للكتاب والمترجمين ، والامتناع عن تداول مطبوعاتها والتعويل عليها في الثقف والاطلاع بالنسبة للقراء عموما ، وآخر ظل مبقيا في قراراته على قدر من التحفظ ازاء مرامي هذه المؤسسة المشبوهة ومقاصدها من حمل كبار الادباء والكتاب واساتذة الجامعات في مختلف أنحاء الوطن العربي ، ممن لا يتطرق الشك الى اخلاصهم واستقامتهم وسلامة مواقفهم من القضايا الوطنية والقومية، هذا الى غزارة علمهم وعمق ثقافتهم واصالة ادبهم ، وبينهم من سلك في عداد الرواد واعلام الجيل الاول الذي ساهموا في تطوير فكرنا وتجديده ، غير انه لا ينزع الى التهوين من خطورة واهمية بعض المؤلفات والكتب المترجمة التي صدرت عنها في طور واخر ،بالنسبة للقراء العرب ، حيث تعدم في مضامينها ومعطياتها اي اتجاه فكري ضار هادف الى تسميم اذهانهم وعقولهم او تحرير بعض الافكار والمفاهيم الاستعمارية أو تبرير المواقف والاجراءات التي تعتمدها السياسة الاميركية من آن لآن ، ازاء قضايا التحرر الوطني ، على نحو ما يفتعل ذلك ويسوغه ويرجف به اولاء الذين يحفظون لمؤسسة فرانكلين بعض خدماتها ومجهوداتها ، نتذكر هذا وشبهه آنفا في مطالعة كتاب الدكتور علي جواد الطاهر : ملاحظات حول الموسوعة العربية الميسرة ، حيث يذكر في مقدمته انها :« صدرت بالقاهرة عام ١٩٦٥ م عن دار القلم ومؤسسة فرانكلين بالفي صفحة ، مع ٣٠ ص للخرائط واللوحات .» ويعدو ذلك الى التعريف بتجنيدها وتطويعها لمكنات وطاقات اكثر من مائة استاذ جامعي او اكثر ، واعتمادها على خبرانهم في جمع المادة الادبية والتاريخية واللغوية وتنسيقها وتبويبها وتصنيفها ،وحين يومىء المؤلف الى اسماء بعضهم ،وجلهم ممن لا ننكر عليهم غزارة علمهم وسعة اطلاعهم ، وحميتهم البالغة في تربية اجيالنا الطالعة واندفاعهم في مجال التثقيف والتنوير ، بل الوطنية بالنسبة لبعضهم على الاقل ومناصرتهم لحركات التحرر في العالم ، فانه يحمل القارىء على الاستغراب من دوافع مؤسسة اجنبية في اصدار موسوعة ميسرة نضعها في متناول المعلمين وتقنيهم بها عن تداول المظان والمراجع الكبرى ونؤهلهم لان يصيروا الى قدر مناسب من الاستيعاب والدراية والتحصيل .

وليس وكل الملاحظ ان يدل على هذا او يثيره في وعي القارىء راميا منه الى التحذير او التزهيد . انما ننصب ملاحظاته على الاخطاء والمزالق والهنات التي وقع فيها المشرفون والمديرون والمصنفون ،ومنها ما ينسلك في مجالات التاريخ والحضارة واللغة والادب ، وبداهة ان تلمس هذه القصورات في مواضعها من الموسوعة ، يحوج رصيدا هائلا من التثقف والدربة والذاكرة القوية ، مما تضيق به ممكنات انسان فرد وتقصر عنه وتفرط فيه ، ودفع هذا الاعتراض ان الملاحظ وان تخصص في دراسة الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ، فانه ملم الماما قد يكون يسيرا ، او بالغا بالادب الفرنسي بحكم اقامته في باريس ردحا من الزمن للدراسة فيجامعتها، وارتياده لمكتباتها ومتاحفها واثارها ، هذا الى انه ممن يقرون بتداخل اوجه المعرفة وتمازجها ، فدارس الادب لا يغني عن التزود بالمحصلات الفلسفية والتاريخية الفلسفية والتاريخية او يلوي عن معطيات علم النفس والجمال ونظرياتهما ، وذا غير تعريف القدامى للادب وتفسيرهم له واعتباره احدا من كل طرف بنصيب فالاديب المعاصر لا يعنى بالوقوف على هاته المناحي والجوانب الفكرية المتعددة الا ليعمق نتاجه ويؤصله

ويثريه انسانية ، قبل ان يقتصر به على الاداء اللفظي والتزويق البياني لكل ظاهر قريب من الافكار والمعاني .

وعندي ان التصحيحات والتصويبات والتعقيبات التي ضمنها الدكتور علي جواد الطاهر كتابه حول الموسوعة العربية الميسرة ، لا تعدم كثيرا من الدلالات ، فمنها انها قربت الى افهامنا اسماء كثير من الاعلام والجنود المجهولين من مريدي الدراسات العربية،ممن تنوسيت عوارفهم ولم يعودوا موضع تذكر او ادكار ، او تعويل على مأنوراتهم ورجوع اليها وانطلاق منها في الدراسه والتقييم ، فمن هؤلاء المنسيين المضيعين : احمد راتب النفاخ محقق ديوان ابن الدمينة الذي لم تذكر الموسوعة أن له ديوانا ، والسيد محمد بدرالدين العلوي الذي حقق عام ١٩٣٤ م شرح المخبل من شعر بشار لابي اسماعيل بن احمد بن زيادة التجيبي البرقي !! والاستاذ حسن السندوبي مؤلف كتاب ادب الجاحظ والمعني باحياء كثير من المأثورات والمصنفات القديمة ، والطاهر بن عاشور محقق مجلدة من ديوان بشار، فهؤلاء المحققون المريدون الاربعة عاشوا في عقود هذا القرن وعملوا في مجال التأليف والتحقيق ، دون ان يوسع عليهم في مجال الذيوع والشهرة، وافتصر رصيدهم منهما على القلة من ذوي التفقه والاختصاص .

ويبدو ان المؤلف ممن يتطلبون الكتاب ان يمارسوا اللغة عن علم ويحيطوا بادبها عن دراية ، ويعالجوا بيانها عن فقه ، ويصدروا به عن طبع ، وكذا نهد هذه المرة لتصويب ما انجر اليه كتاب الموسوعة من ضعف في الاداء ونهافت في الصياغة ، وحيدة عن التوفق في استعمال المفردات ، لما وضعت له من الاغراض واختصت به من المعاني ، وحين تذكر الموسوعة ان يوادجار الن ، واقته المنية بسبب افراطه في الشراب ، يعقب ان « الشق الاول من الجملة غير متسق مع الشق الثاني ، لان واقته المنية توحي بما يكرم الاسم المذكور بالحالة التي مات فيها ، كأن تكون المنية قد واقته في احد ميادين الشرف ، لذا كان بامكان الموسوعة ان تكتفي بالقول : مات بسبب افراطه في الشراب » . ومن قبيل ذلك تعليقه على قول الموسوعة: ان صلاح‌الدين الايوبي بطل ومقاتل مسلم ، فيلفي ان « كلمة ـ مقاتل ـ نابية وهي مما يمكن ان يصفه بها الغربيون ، اما في موسوعة عربية ، فيمكن الاستغناء عنها او استعمال شجاع او فارس‌بدلها».

وشبهه ايضا تحديده لمدلول عبارة :« استفحل امره في جبل بني العروس » التي ذكرتها الموسوعة بخصوص الثائر المغربي احمد بن‌محمد الرسولي ، اذ يخاله تعبيرا راميا الى « الحط من شان من يعود الضمير عليه والاولى فيه ان يصدر عن فرنسي في ثائر مغربي عربي ».

وقد جرى الدكتور الطاهر في ازجاء ملاحظاته وتعقيباته ، على تتبع واستقصاء ما يتعلق بالكتب والحوادث والرجال ، من الدقائق والشؤون ، ومن الغرابة ان يتكفل بضبط الاسم الصحيح لمؤلف‌بندلي جوزي ، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، بعد ان ذكرته الموسوعة باسم « تاريخ الحركات الاجتماعية في الاسلام » ، ويشير الى اعادة طبعه في بيروت ، ولا ينوه بما صحب ذلك من ردود فعل قوية حيث طبعه احدهم ونسبه لنفسه ذات يوم ، وانبرى غير واحد للتنديد بهذا التجاوز وفضحه ، كالاستاذ عبدالرحمن الشرقاوي في مجلة الغد المصرية المحتجبة عام ٥٤ ، وكذلك مجلة الاداب التي دلت على مؤلفه الحقيقي ، فأعيد طبعه باسمه عن دار الروائع ، وكان حريا بالملاحظ ان يستطرد الى هاته القضية الادبية ويفصل حولها .

كما فاته ان يصحح ما نص عليه اصحاب الموسوعة حو تاريخ ظهور دائرة معارف القرن العشرين للمرحوم محمد فريد وجدي وعدد مجلداتها ، ويبدو انهم عولوا في ضبط مادتهم بصددها على معجم المنجد الملحق بمنجد لويس شيخو والذي اعده الاب فرديناند توتل، فجاء فيه انها تقع في عشرين جزءا ، وظهرت عام ١٩٣٨ م ، وفي محفوظنا ان دائرة معارف وجدي بمجلداتها العشرين في حسبان الموسوعة او العشرة كما يظن الدكتور الطاهر ، طبعت قبل هذا التاريخ بزمن بعيد ، وبالرجوع الى ديوان الجواهري ، الجزء الثالث المطبوع عام ١٩٥٣ م ، تطالعنا قصيدته العامرة : الثورة العراقية، التي نظمها في اعقاب ثورة العشرين ، يوم لم يتجاوز عمره‌العشرين عاما ، وكان لنظم القصيدة وقع في الاوساط السياسية والصحفية في بغداد ، ويرى الاستاذ الجواهري ، في تقديمها ان من دواعي حفظ الوافع والتاريخ ان يذكر الجيل المعاصر بما نالته قصيدته من الاعجاب والاستحسان « بحيث ان المرحوم الشيخ‌مهدي‌الخالصي واحد كبار العلماء الذين اشعلوا نيران الثورة وتعرضوا لاذى المحتلين والسلطات العراقية نفسها عبر عن تأثره بها بهدية علمية نفيسة ارسلها الى الشاعر هي مجلدات دائرة المعارف للمرحوم فريدوجدي»

والقصيدة ذي هي التي طالما استشهد بابياتها الدكتورالطاهر، ونوه بقيمتها وعطائها الفني ودالتها السياسية ، في كل مرةيذب فيها عن الجواهري حين يستهدفه اخصامه من السياسيين والادباء بالافتئات والتجني ، والتجريح والتحامل :

لعل الذي ولى من الدهر راجع ... فلا عيش ان لم تبق الا المطامع
غرور يمنينا الحياة وصفوها ... سراب وجنات الاماني بلاقع
نسر بزهو من حياة كذوبة ... كما افتر عن نغر المحب مخادع
هو الدهر فارعه يصاحبك صفوه
فما صاحب الايام الا المقارع ،

وبالاجمال فان ملاحظات الدكتور علي جواد الطاهر وتعقيباته‌على الموسوعة الميسرة ، بقدر ما تدل على وفرة محفوظة من اشتات‌العلوم والاداب ، ومكنته من ضبط الوقائع والحوادث ، والمامه بالمظان‌والمراجع، وتصفحه لامهات المأثورات والمصنفات ، فانه اذ يدل بها‌ادلال المتواضع السمح ، والحريص على النفع والافادة ايضا ، والمبرأ من ايما تعالم او تحذلق ، يهدف منها الى استحثاث المثقفين ممن يتسنمون مناصبهم القيادية والتوجيهية والتربوية ،في كافة انحاء الوطن العربي ، لان تتضافر جهودهم الخيرة من اجل « موسوعة عربية ميسرة » اخرى ، لا اثر فيها للخلط والتهافت ،والتفريط والقصور.

العراق ـ الهندية — مهدي شاكر العبيدي

* *

المطاردون

مجموعة قصص لزهير الشايب

قضية الفريب القادم من الريف الى المدينة ، قضية مطروقة ومعروفة في الادب الحديث . وقد التقطها زهير الشايب في اولى قصص مجموعته « المطاردون » وربما كانت اولى قصصه القصيرة على الاطلاق كما حدثنا في شهادته للطليعة ، فتاريخها يرجع الى عام ١٩٦٣ والمجموعة صادرة في عام ١٩٧٠ وهي تضم قصصا قديمة للمؤلف الشاب ، تعبر عن مرحلة فكرية وفنية هامة لا بد وان تخطاها زهير الشايب اذ ان احدث قصص المجموعة كتبت عام ١٩٦٦ . وقد رتب كاتبنا قصصه ترتيبا زمنيا حسب تاريخ كل قصة . وخيرا فعل ليدلنا على تطوره الفني والفكري معا .

والقصة تصور لحظة محددة في حياة بطلها الريفي « فوزي عبد المجيد رسلان » لحظة الخروج من القرية الى المواجهة الاولى مع المدينة الكبيرة القاهرة . وتأخذ القصة في تعميق هذه المواجهةعلى دفعات صغيرة متتابعة حتى لنفاجأ في النهاية وقد رسمت لنا القصة المدينة الواسعة وكأنها تضيق بالانسان الريفي الحر . حقا انت تجد هذه الفكرة مطروقة ومعروفة قبل زهير الشايب وبعده . ولكن

زهير يعطينا اضافات جديدة في هذا الباب المغري للكتاب والشعراء ان القصة التي بدأت ببطلها منتفخ الاوداج وافر المهابة والثقة والخيلاء بنفسه وهو واقف ظهره الى المحطة مستند الى خليفته المطمئنة في القرية متشوقا الى اكتشاف المدينة الكبيرة والى ذرعها بالطول وبالعرض . لا تلبث ان تنتهي هذه القصة ببطلها كسيرا محطما مطاردا بلا هوية ، لا يجرؤ ان يخطو خطوة واحدة دون الاستعانة بممثل السلطة عسكري المرور .

وطوال ٢٤ صفحة من الحجم المتوسط هي عدد صفحات القصة، لم تفقد القصة القصيرة اي سمة من سماتها المعروفة بل واهمها، وهي التعبير عن موقف او لحظة محددة . وكل ما فعلته القصة بصفحاتها الطوال انما هو اثراء للعمل الفني وللمضمون الجيد للقصة . لقد اخذ الكاتب في حياكة قصته في نسج دقيق وتفاصيل بسيطة وعادية ، ثم اخذت الخيوط تجمع والتفاصيل تتراكم حتى خرجت لنا القصة مكتملة البناء وافية الفكر والمضمون .

فمع ان بطلنا رجل ممتاز في قرينه جاء المدينة واعيا بالاعيب المحتالين والنشالين ، الا انه تنبه الى خشونة ملبسه وقذارته وانتهى الى احساسه بعيب في خلقه وتركيبه الجسماني . ومع انه منتبه جيدا الى خطر النشالين واللصوص ، الا انه نشل . نشلت هويته فضاع تماما واخذ يتعرض لاضطهاد المدينة ونواب السلطة فيها . وبدلا من ان يحذر النشالين شعر بصعوبة في تجنب انهامه بالنشل واللصوصية . وبدأ شعوره بالضآلة والغربة والقذارة يقوده الى ان يصبح غريبا ضائعا مطاردا متهما بكل جريمة ، وحتى اسمه بدأ يتجرد منه حتى انتهى الى الغاء وجوده وحريته وصار مآله الى السجن مع النشالين واللصوص الذين ينفذهم هويتهم اما هو فانه السجين الابدي الوحيد الغريب الضائع المطارد . وقد استرد حريته عندما اعترف بانه غريب ووحيد وضائع في المدينة اي عندما الغى كل احلامه وتصوراته السابقة للنزهة ولذة اكتشاف المدينة الباهرة . وجاءت حريته بناء على رشوة رجل لا يعرفه هو شيخ الحارة ، وجاءت حريته مشروطة بموافقة السلطة في المدينة على ان يسير في طريق محدد وفق الطرق المحددة في المدينة ، والا يتخطى حدوده بمحاولة اكتشاف كل الطرق . لذا عندما سأل شرطي المرور عن الاتوبيس الذي يقود الى جهة معينة وتخلى عن حريته في اختيار اي اوتوبيس واي مكان، لم ينظر اليه الشرطي بدهشة ، وسار كبقية الناس وفق ما يحدد لهم من ارقام اوتوبيسات وطرق في الحياة . وهنا فقدت المدينة كل جاذبيتها القديمة ولم تعد اضواؤها ونساؤها بقادرة على الهائه عن جوهر المدينة البشع .

واذا كانت المدينة هي مبعث الغربة والوحدة والضياع لدى « فوزي عبدالمجيد رسلان » بطل قصة « الغريب » فان غربة بطلي قصة « اوراق الخريف » نابعة من صراع الاجيال ، فكل الحوار الذي يدور على مقهى تكتنفه رياح الخريف وتجر معها اوراقه الذابلة ، يدلنا على ان قضية صراع الاجيال متكررة وحتمية وانه لا بد للاجيال القديمة ان تنتهي وتفسح مكانها للاجيال الجديدة . وانه لا مفر من الغربة والوحدة والضياع تلعقها الاجيال القديمة . وسواء تزوج الرجل وكوّن اسرة وابناء وبنات ، ام لم يتزوج وظل يعاني الوحدة، فانه ملاق الوحدة والغربة حتما ، فكل الطرق تفضي اليها ولا مفر من معاناتها . ويبدو ان زهير الشايب اراد ان يعبر عن قضية الابناء الشبان بالرمز البسيط ، فمهما تشبثت الاجيال القديمة باصرار، فان اصرارها عقيم لانه ضد الطبيعة المتمثلة في زحف العاصفة الخريفية لتخلي الطريق للاجيال الجديدة من الشبان ، اجيال الحب والغضب.

ولقد صور زهير الشايب في هذه القصة بدقته المتناهية كيف تسدل السلبية عناكبها على الاجيال القديمة فتصبح غير قادرة على العطاء او حتى على الدفاع عن وجودها . ومع ان في هذه الصورة بعض المبالغة الا انها ترد على سبيل التشخيص والكاريكاتورية . انظر الى بطل القصة العجوز العاجز عن انيان اي حركة او تصرف في جلسته البليدة بالمقهى ـ الذي يعني تيار الحياة اذ يجمع بين الشباب والشيوخ ـ فهو حتى عاجز عن التأمل :

« وبدأ يتأمل كوبة الماء نصف الفارغة ، وفنجان القهوة الذي انتهى منه من زمن ، والذي غرق في قاعه عديد من اعقاب السجاير. وامتدت يد تحمل الاكواب الفارغة . وتنظف المائدة التي يتكيء عليها .. هم بأن يقول للجرسون ابقها لكنه لم يفعل ، وهم ايضا بان يسأله عن صديقه مسعود لكنه تذكر انه سأل عنه ثلاث مرات من قبل. هذه الذاكرة اللعينة ! يبدو الا شيء في جسده قد عاد يصلح ، فما الذي لا يشكو منه ؟ » (ص٣٢) .

كان المطارد في القصة الاولى هاربا من السلطة في المدينة .وجاء المطارد في القصة الثانية وحيدا بفعل قدره وصراع الاجيال . اما في القصة الثالثة فان البيروقراطية هي القوة الاصيلة في اضطهاد ابطال فضاء « النور الاحمر » . وهي قصة مألوفة جدا وعادية . فالموظفون والرؤساء يعيشون في رعب دائم بسبب ما يشاع عن سطوة المدير وبطشه وقدرته على بث العيون والجواسيس وتسمع كل شيء. دون ان تبدو بادرة واحدة من الموظفين للاحتجاج على قدرهم الوظيفي واضطهادهم الذي يصل الى درجة العبودية للمدير . فان « حذاء المدير الكريب فوق رؤوسهم »في اي وقت . ويدلنا هذه الجملة على مدى المهانة التي يعيشها الموظفون من جراء حادث مرور مفاجيء قام به المدير ذات يوم منذ عام او يزيد . ان التعليمات تصدر والاوراق توقع وكل شيء يسير باذن المدير المختبيء في لجنة دائمة خلف النور الاحمر المضاء لايام متتالية على باب حجرته المغلق دوما . حتى اذا ما قدر لاحدهم ان يحتج مرة واحدة على ظلم المدير وان يرفع صوته بكلمة لا وان يضم على رؤية المدير وتحديه باصرار وقوة رغم كل نغمات التخاذل من حوله ، فاذا بحجرة المدير خالية واذا بالمدير في اجازة منذ خمسة ايام واذا بحقيقة الذل والانصياع ورفض الاحتجاج تتكشف جميعها ازاء الوحش الحقيقي الذي يضطهد الموظفين ويطاردهم خفية وعلنا ، البيروقراطية .

ولعلنا نلاحظ ان زهير الشايب ظل يحافظ على ان يدخر لنا في نهاية هذه القصص مفاجأة ما تكون بمثابة الانارة الكاملة للعمل الفني . فليست المفاجأة هنا من نوع المفارقات القديمة في القصة المصرية والتي التقطتها بدورها من قصص جي دي موباسان . ولكن المفاجأة تجيء نتيجة لتراكم التفاصيل الدقيقة المتتالية في القصص لتمثل كما هائلا من الحقيقة يفضي بدوره الى تغير كيفي لدى القارىء فتأتي المفاجأة الاخيرة من سياق العمل الفني ومن صنع الكاتب الفنان المأني والدؤوب . اما ان القصص تسير في خط تقليدي وسرد تقليدي وتحافظ على روح الحكاية والتسلسل المنطقي فذلك امر لا جدال فيه ولكنه لا يعيب العمل الفني لانه متماثل مع تقليدية الحياة التي تعبر عنها القصص ، فمن اين يأتي التجديد في هذه الحياة التقليدية الجامدة المتخلفة . وما دام الشكل مطابقا للموضوع ويخدم جيدا المضمون الذي اراده الكاتب بكتابة هذه القصص فليس ثمة ما يؤخذ على تقليدية القصص . فان الشكل يرد لخدمة المضمون وليكونا معا نسيجا واحدا متماسكا ، وهو ما نجحت في ابرازه هذه القصص لزهير الشايب . وعندما تعرضت احدى قصص المجموعة « المهرجان » لتناقش واقعا سياسيا متقدما نوعا ما عن الحياة الريفية فانها سرعان ما استخدمت اسلوبا متقدما كتيار الوعي والفلاش باك والمونولوج الداخلي والنقلات السريعة والضمائر المختلفة.

في قصة « الزيارة » المكتوبة عام ١٩٦٥ كسابقتها يأخذ الاسلوب الفني واللغوي في التقدم . فبدلا من السرد المنطقي المتتابع يبدأ

المونولوج الداخلي في الظهور . وبدلا من الجمل الطويلة ، تتناثر الجمل القصيرة ذات الايقاع الشعري . وتبدو روح السخرية تسري ظلالها المرحة والمرة على سطور القصة . وبدلا من الاسلوب الوصفي تتابع الصور وتتلاحق . وعندما يتدفق المونولوج الداخلي ينساب تيار الوعي لنعرف كيف تدور احلام يقظة رجل بسيط كالحقير القروي « مجاهد عبدالسميع راضي » وكيف تنتهي لتتحطم على صخرة الواقع المر . ونرى كيف حركت هذه الاحلام حركة الاستعداد لزيارة المحافظ المرتقبة للقرية . ان « مجاهد » خفير ريفي مجد نشط في اداء واجبه يشهد له الجميع بذلك ، لكنه بائس كأهل قريته وطموح أيضا . وقد رأى اخيرا في زيارة المحافظ للقرية المتنجب الذي يعلق عليه احلام طموحه وآماله ولا تزيد هذه الآمال عن جنيه علاوة وعن افتتاح مدرسه اعداديه ومستشفى بالقرية ، وعلى ان يأخذ حقه في الظهور بصحف القاهرة على الاقل اسوة بكبار المجرمين الذين تعرد تهم صحف اعمدتها . واذ يأخذ مجاهد في ترقب لحظة التغيير الحاسمه التي ستجهها زيارة المحافظ لقريته ولاسرته ولحياته باسرها . يمر ركب المحافظ دون ان يشعر به مجاهد . فتنهار احلامه دفعة واحدة . ويعود مجاهد الى سيرته الاولى حيث الذباب والقذارة والبرطوبة والمرض . وحيث السعور بالغربه والضياع بعيدا عن السلطة الاقليمية وعن أضواء العاصمة واجهزتها .

« المطاردون » هي القصة التي منحت عنوانها للمجموعة القصصية الاولى للقاص الشاب زهير الشايب . وهو اختيار موفق اذ ينطبق العنوان على جميع القصص التي يعاني ابطالها من الغربة والضياع والوحدة وتهددهم المطاردة بشكل او باخر . وقد لفتت نظري جملة كتبها زهير الشايب في شهادته لمجلة الطليعة (عدد سبتمبر ١٩٦٩) تدلنا على مفهومه لدور الاديب كناقد وليس كمهلل اذ يقول :

« ان الاديب رغم احترامه للنظام السائد ورغم وقوفه بجانبه ليدعمه وينتصر له قد يقيم الدنيا ويقعدها لان النظام لظرف ما قد وضع في الحجز واحدا من الناس ليلة واحدة بطريق الخطأ والاشتباه ، ،بل وربما لان عدوا لافكاره هو وللنظام الذي يدعو اليه يعامل من قبل النظام بطريقة تهين فيه ذات الانسان وانسانيته . ومن هنا فان الفنان اقرب الى التمرد منه الى الثوري . »

ولعل هذا ينطبق جيدا على هذه المجموعة التي نفهم الادب كنقد للحياة .

هنا تتكرر قصة الغريب المتهم بلا جريمة ، الريفي اللاجيء الى المدينة يحمل احلامها فتطارده المدينة وتوجه له الاتهامات الجائرة. فهنا شاب تتركز حياته في الفرصة الممنوحة له عند آحد رجال المدينة المحترمين من ذوي قرباه . وهو اذ يحاول الامساك بهذه الفرصة بقوة حتى لاتفلت منه . تدب الشكوك في من حوله . وتبدأ هذه الشكوك بثواب المنزل الذي اثار شكه سؤال الشاب عن المنزل وعن الرجل المهم دون ان يلج المنزل . ثم في مجموعة من اللصوص حاولوا الفتك بالشاب في الطريق العام فاذا ما أخذ في الفرار منهم بدأوا هم ايضا رحلة المطاردة بندائهم الذي يتهمه هو البريء بالسرقة « امسك ... حرامي » . وتتجمع المدينة في طابور طويل لمطاردة اللص البريء. خلا هذه المطاردة يسقط المؤلف هموم اهل المدينة ايضا بالاضافة الى هموم الشاب الغريب المطارد . وبينما ينهمك الناس في مطاردة اللص البريء متوهمين فيه عدوهم الشرير الذي يمتص حيانهم في المدينة. يستمر اللصوص الحقيقيون في سرقة الناس . فالمرشي وجد المحامي الذي يبرئه ليعود الى ابتزاز الرشوة من جديد . وبائع الفاكهة يصمم على رفض البيع بالتسعيرة التي سنتها الحكومة ومن يريد تسعيرة الحكومة فليشتر من الحكومة .

والرجل الذي سرقت نقوده وجاء مشيا على الاقدام من العتبة ،كل هؤلاء اللصوص انضموا الى اللصوص الاخرين وكونوا طابور المطاردة الطويل الذي اخذت المدينة تتفرج عليه في سلبية مطلقة . واذ يستنفد الشاب الغريب المطارد كل طاقاته في الهروب من مصيره ويعتريه اليأس في تحقيق احلامه لدى رجله المهم اذ لا بد هو الاخر مشترك بالفرجة والسلبية في هذه المطاردة ، ينهار الرجل الغريب مضرجا بدمائه وهنا يظهر الشرطي ممثل السلطة اخيرا خوفا من مسئولية ووقع حادث قتل ويحول بين جمع اللصوص وبين البريء . وسرعان ما يكتشف الشرطي دون قصد منه مدى براءة الغريب المطارد اذ لا يتهمه احد بالسرقة . وهكذا تتجسد مأساة الريفي الغريب في المدينة وتتكرر في قصص زهير الشايب .

في قصة « الرحلة » يدور الحوار التالي بين ركاب القطار ، ومعروفة دلالة القطار ورمزية البسيطة ، وهذا الحوار يعمق المعنى المألوف للقطار :

ـ « يجب ان نروض انفسنا على هذا ... »

« ـ السفر جزء من حياتنا .. »

« ـ بل حياتنا كلها .. دنيا .. »

وبهذه الكلمات الصريحة يدلنا المؤلف على ان ما يجري في هذه القصة انما يحاول التعبير والاحاطة الشاملة بمشاكل حياتنا . وهنا نصطدم بضياع الناس الريفيين الذين لا يبالي بهم القطار ولا يترك لهم فرصة للحاق به الا بالتسلق والمعارك . ويبدوان السلطة هي القسمة المشتركة في قصص زهير الشايب ، فبينما يتكوم الناس في القطار ، تبدأ المشاكل بينهم على الكراسي وتتحول الى عراك دام بينما لا يتحرك الشرطي ممثل السلطة لفض النزاع فيتساءل واحد منهم :

ـ والحكومة لا تتحرك ؟

ـ هي في انتظار ان يقتل الناس بعضهم البعض ..

ـ وبذلك لا تكون هناك مشكلة !

ويأخذ زهير الشايب الكاتب الواقعي في تجربته الرمزية البسيطة لنقد حياتنا التي يعدمها لنا عن طريق كلمات الحوار في قصته « الرحلة » .

« ـ ياه القطار بطيء .. »

« ـ قديم كالازل .. اركبه منذ طفولتي .. »

وهكذا حياتنا بطيئة قديمة كأنها لا تتحرك .

وحتى اختيار الاغنية في القصة يدلنا على مدى الضياع الذي يغلف حياة ابطال زهير الشايب ، فعندما يحاول الركاب تمس ما يجري من مشاكل في حياتهم ، بالاغنية تجيء الاغنية معبرة عن ضياعهم « ياوابور قل لي رايح على فين .. » ويقدم زهير الشايب شرحا طريفا متابعا لكلمات الاغنية وتطبيقها على رحلة القطار على الارض وبالناس

اما القطار فهو محافظ على بطئه يعج بالاغاني والمنافسات الاقليمية . بينما يحاول اطفال القرى اللحاق به في سباق معه واذ يسبقونه يدركهم فتور غريب فيكفون عن التسابق ويعودون الى اسمالهم ووحلهم .. فلا شيء يغريهم بالتقدم .

ولان هذه القصة تتناول الحياة المصرية باوسع معانيها فانها تتخلى عن وجود البطل الفرد لاول مرة في قصص هذه المجموعة . فهنا الناس كلهم ضائعون ضجرون قلقون يعانون من رتابة الحياة وبطء وقعها وتخلفها .

وفي « القضية » احدث قصص المجموعة (مكتوبة عام ١٩٦٦) يعود المتهم البريء الى الظهور . فيوسف حسن عبدالله موظف تحت الاختبار لمدة ثلاثة شهور . وهو قلق حريص على تجنب المشاكل حتى يحافظ على وظيفته طيلة الشهور الثلاثة . ولكن حرصه هذا لم يمنع الاتهام الجائر من ان يلتف حوله ويدينه . فقد وقع ضحية لجنيه مزيف واتهم بتزويره وحاول ان يدفع الاتهام عنه ، او ان يتهرب من ملكيته للجنيه المزيف . غير ان كل هذا لم يقده بعيدا عن السجن في قسم

البوليس حيث تلقى من التعذيب والارهاب والتهديد والوعيدوالملاينة والخديعة ما جعله يقر بانه مجرم فعلا واخذ يقنع نفسه بانه لا بد قد ارتكب جريمة التزوير بالفعل ونسى ! ايجب ان يتذكر كل شيء فعله . وقد افقده الضرب والاهانة كل احساس بالكرامةوالبراءة. وعبثا حاول الاحتجاج بان الضرب ممنوع وان المتهم بريء حتى تثبت ادانته وان التفتيش بدون اذن ممنوع . الا انه تبين له ان كل هذه الضمانات ليست الا حبرا على ورق . وانه يجب ان يعترف بارتكابه الجريمة الملاة عليه حتى يضمن الضابط مكافأته ونيل من عشيقتهدداياها من العقود المزيفة ايضا ، وحتى ينتصر الضابط على زملائه من الضباط في المنافسة على نيل رضا الحكمدار .

واذ يقدم المتهم البريء على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها تبين له ان كل شيء عبث ، فيأخذ في التلاعب باعصاب المحقق الذي لا يلبث ان يكتشف ان المجرمين الحقيقيين قد قبض عليهم وانهم اعترفوا بجريمتهم وابرأوا متهمنا البريء . وعبثا يحاول الضابط استغلال وجود المتهم البريء في قضية التزييف اذ يسبقه زملاؤه الى اكتشاف كل اركان الجريمة . وهكذا تعود البراءة الى بطلنا . ويكشف لنا زهير الشايب مرة اخرى عن أحد المطاردين ، الذين لا تكف المدينة عن مطاردتهم وادانتهم برغم براءتهم .

ولا تأتي هذه المطاردة بفعل قدرغيبي غشوم وانما تنتج من واقع غاص بالالم وانعدام سيطرة القانون وسريان شهوة الاستحواذ على المال ومحاولة الحصول عليه باي ثمن في مجتمع مثله الاعلى النقود .

ويلجأ زهير الشايب في هذه المجموعة القصصية ـ التي تقدم لنا اشخاص المطاردين المظلومين الذين يعانون من الغربة والوحدة والضياع ـ يلجأ زهير الى فضيته هذه ليس من اجل فكرة ميتافيزيقية او عبثية ، وانما من اجل ادانة هذا النمط من الحياة ورفضه .

وقد برع زهير الشايب في هذه القصة وفي قصص مجموعته الاولى عموما في تعميق اللحظة ، وفي تقديم صور الموقف من كافة جوانبه ، الخلفية والامامية ، الشعور واللاشعور .. غير أن ثمة ملاحظة عامة على اللغة المستخدمة في صياغة هذه القصص . انها لغه تقريرية بسيطة تكاد ان تكون خالية من الجمال ، فهي اقرب الى لغة الصحف التقريرية الخالية من اية ايحاءات انفعالية . ومع ان هذه الملاحظة تنطبق على الكثير من المجموعات القصصية لكتاب جيل الوسط مثل يوسف ادريس وعبدالرحمن الشرقاوي، وجيل الشباب الذي ينتمي اليه زهير الشايب ، الا اني على ثقة من خلال مطالعة القصص التالية لهذه المجموعة ، من ان زهير الشايب ، عاكف على تجريد ادواته الفنية في دأب وعناية .

القاهرة — احمد محمد عطيه

* *

الليلة الاخيرة في القرن العشرين

قصص قصيرة من الادب الالماني المعاصر

كتابات معاصرة ، القاهرة ، ١٩٧٠.

يتألف هذا الكتاب من ١١ قصة قصيرة من ادب المانيا الديمقراطية المرتبط بحياة الشعب ، قام الناقدان فوزي سليمان ونبيل راغب بترجمتها عن الانجليزية بلغة قريبة المنال ، ثم عقدا في اول الكتاب وآخره مقدمة ودراسة نقدية تيسران للقارىء العربي الاحاطة بمضمون هذه القصص وشكلها وموافف كتابها ، بحيث لم يدعا للناقد الا فرصة ضئيلة جدا ، تتمثل في القاء مزيد من الضوء على الدلالة الفكرية للمجموعة القصصية المترجمة .

والقصة القصيرة بصفة عامة ـ بخلاف الشعر والمسرح والرواية ـ شكل ادبي اكثر حداثة من التراث الانساني ، شديد الالتصاق مع عصر السرعة الذي تتصاعد فيه ارتباطات الانسان وتتعدد متعة ، ما أقدرها على حمل افكار ومشاعر الكتاب بصورة مباشرة مؤثرة ،واجتياب الماضي والحاضر والمستقبل . وما أشد حاجة ادبنا العربيالنامي، الذي يحيا حياتنا الثورية ، الى ان يتأمل ويستلهم التجارب العالمية الخلاقة لهذا الشكل ، حتى تتدعم اتجاهاته التقدمية ، والى ان يفيد من القيم العصرية الحية التي ينبض بها هذا الادبالاجنبي، ويتفاعل معها من فوق الارض العربية .

وهذه المجموعة القصصية التي ترجمها فوزي سليمان ونبيلراغب تنطوي على عدد جم من هذه القيم والمعنويات البناءة الملهمة ،التي ترفع بالقارىء والكاتب العربيين الى مستوى الرؤية الحضارية ، التي يقذفها هؤلاء الكتاب ، وتنبيء عنها كل قصة .

ويرجع هذا بالطبع الى ان كل القصاصين الالمان الذين قدمت لهم قصصا ، من الرجال والنساء ،من الكتاب الاحرار ، الذين عركوا الحياة ، وناضلوا ، بالكلمة والفعل ، في سبيل قضايا البسطاء من الحرية والعدالة ، دون ان يفقدوا الامل ـ تحت الظروف الفاسيةالتي مرت بهم ـ فيما يعد به المستقبل من خير عميم ، بدأ يتحققبالفعل منذ الثامن من ايار (مايو) ١٩٤٥ ، وهو تاريخ تحرير الشعب الالماني من الفاشية .

وقصة « الليلة الاخيرة من القرن العشرين» لاستيفان هيم ، التي اطلق اسمها على المجموعة ، ببنائها المحكم المليء بالتنقلات الخاطفة ، تومىء الى احدى هذه المعاني الطيبة ، التي تنم عن تفاؤل غامر ازاء ما نقبل عليه في عصر الفضاء من سيادة التكنولوجيا والاشتراكية والالمام بكل نواحي الكون . فرغم ان عالم ذلك اليوم الذي تدور فيه احداث القصة ، وهو ٣١ كانون اول (ديسمبر)١٩٩٩ عالم تتحكم فيه الالة ، ويسود الحاسب الالكتروني ، ويتم فيه بسرعة خارقة اجتياز الفضاء والتنقل بين القارات بالمركبات الهوائية النفاثة ، الا ان تمسك الشخصيات بتقليدنا القديم ، الاحتفال برأس السنة الجديدة ، يعني ان العاطفة الانسانية باقية ابدا ،لم تتلف منه ، على خلاف ما يرى عدد كبير من الادباء والعلماءالتشائمين في البلاد الرأسمالية ، الذين يشككون في قيمة الحضارة ، ويعتبرون ان الآلة تتناقض مع الاحاسيس الجمالية ، وتقضي على عواطف الانسان .

ولهذه القصةالعلمية بالذات ابعاد سياسية اقدمية واضحة ، ايضا تجعلها اهم قصص المجموعة ، اذ تتنبأ « بالتغير الكبير » الذي يحدث الولايات المتحدة الاميركية ، التي يعتبرها الكاتب ـ عن حق ـ مصدر الخطر الرئيسي في عالمنا ، كما تندد بالبلاد « التي احتكرت فيهقلة من الاغنياء القدرات الانتاجية وقصرتها عليهم » ، وتشيد ،في نفس الوقت ،بالاحداث الثورية الخالدة ، التي تحققت في القرن العشرين: في الاتحاد السوفياتي ، والصين ، والجمهورية العربية المتحدة .

الا ان ابرز ملامح هذه المجموعة شخصياتها الحية المناضلة ، التي تذكرنا بكثير من الشخصيات الواقعية التي تعيش الى جوارنا ، وفي كثير من بقاع الارض المناضلة .

وبهدف النضال في هذه القصص اما الى تحقيق الحرية للوطن، كما نرى في قصة « الفتاة البدوية » لما كسميليان شيير ، التي تحاول فيها الفتاة الصغيرة تحطيم حلقة التقاليد الاسرية البالية ، من اجل الانخراط في صفوف المناضلين لتحرير الوطن الجزائري من الاستعمار .. واما الى تحقيق حياة كريمة ، تخالف حياة القهر والخوف والحاجة التي عاناها جيل كامل ، قبل وفي غضون الحرب الكبرى الثانية واعقابها ، على المستوى الاجتماعي للشخصية ، على نحو ما نجد في قصة « الام وابنها » للكاتبة الفريدا برونج ، وغيرها كثير .. واما من اجل الارتفاع بقيمة من القيم الاخلاقية ، مثل الصدق يحفظ الوعد ، في قصة « المرأة العجوز والنسر » ،وهي قصة من ادب الاطفال ، ذات اصداء شعبية شرقية .

ان كثيرا من تجارب هذه القصص منتزع من احداث الحرب التي

جذبت ، بكل ما حملته من معاناة ودمار ، الفكر الالماني ، كما اشار المترجمين ، وشحذت قواه وسلحته ضد كافة الضغوط الهمجية التي تعرض لها الانسان في الحكم النازي .

لذلك تقف هذه المجموعة القصصية من ادب المانيا الديمقراطية، بالمعاني الانسانية التي تزخر بها ، وبتصويرها لكفاح الشعب الالماني ومعاناته بصفة خاصة وجهوده لتخطي المصاعب ـ تقف الى جوار الانسان ، ضد القوى المعادية للانسان : تدافع عن وجوده وحريته وسعادته وكفايته واحلامه ، وتحيي كفاحه ، سواء على جبهة القتال ، او في معترك الحياة أليومية ، حيث تتعدد صور الاغتيال النفسي، في مواجهة طلب القوت والكرامة والامان .

ويتراوح اهتمام الكتاب بين التعبير عن صلات الشخصية بالعالم الخارجي ، ومواقفها واستجاباتها للاحداث ، او النفاذ الى داخلها ، وصياغة اعماقها ، ووجدانها ، وانفعالاتها . وكثيرا ما تجمع القصة الواحدة بين الساحة الواقعية ، وساحة النفس .

والمجموعة ، بذلك ، تنتمي الى « ادب المقاومة » الذي ترتفع فيمنه في بلادنا العربية المناضلة ضد الاستعمار والامبريالية ،ويتضاعف حاجتنا هذه الايام الى الالتقاء به وتقديم نماذجه الرائعة من انتاج العالم الحر للجماهير القارئة ، لكي يعمق وعيها بحياتها وبالتحولات العظيمة التي تقبل عليها ، وتتوطد معرفتها بهذه الشعوب الصديقة المكافحة ، مما يساعد على تحقيق الوحدة الفكرية للامة العربية ، وتزداد تماسكا في صراعها المتصل من اجل التحرير ، والعدالة ، والتقدم .

القاهرة — نبيل فرج

* *

قيثارة الريح

مجموعة شعرية : لبدر شاكر السياب

اشرف على تحقيقها : زكي الجابر ـ عبدالجبار البصري ـ سامي مهدي ـ خالد علي مصطفى

مطابع الجمهورية ـ وزارة الاعلام ـ الطبعة الاولى ١٩٧١ ـ بغداد»

تضم مجموعة بدر شاكر السياب (قيثارة الريح) قصائد لم تنشر للشاعر من قبل ، وكان الشاعر قد كتبها في الاربعينات ،كما تشير بذلك تواريخ قصائده ، ما عدا قصيدته الجبارة (اللعنات) التي يبدو انه نظمها في الخمسينات، ابان التزامه السياسي ، وانخراطه في الحركة الوطنية .

والظاهرة التي يمكن تلمسها في هذه المجموعة ، من حيث الاسلوب، هي ان كل شعر المجموعة مكتوب قبل قصيدته (هل كان حبا) ، والتي كتبت بأسلوب الشعر الحر ، الذي ابتدعه الشاعر السياب ! يقول السياب في قصيدة (يا نهر) :

يا نهر اين مضى الزمان بانسه — والمترع المعسول من كاساته
وهل اهتدى الزمن الحقود فقال ما — قد اودع المفؤود في خلواته
قبلاته في ضفتيك صريعة — أفهل حفظت له صدى قبلاته

وقد اشار محققو الديوان ، عند التقديم لهذه المجموعة ، بانها قد لا تضيف شيئا جديدا الى تراث السياب الغني ، ولكنها قد تنير الطريق لدراسة الفترة الاولى من حياته ، وتجلو بعض الجوانب الغامضة التي تحدث الكتاب عنها . ولا تعليق لنا على ذلك سوى ان هذه المجموعة ، لا سيما قصيدته (اللعنات) قد أثرت شعر السياب في مرحلته الاولى ، واغنته بما حملته من افكار اجتماعية ـ نضالية مبكرة بالنسبة للشاعر .

ويبدو من المجموعة ، ان السياب كان مغرما بالشاعر الانكليزي وورد زورث ، الذي كان يمثل التيار الرومانسي المنعطف نحو الطبيعة في الادب الانكليزي . وما ذلك الا لاعجاب السياب بهذا الشاعر ، ولكون موضوع الطبيعة ، مرتبطا اشد الارتباط بحياة السياب ، وبنفسيته ، فكان انعطافه على شعر هذا الشاعر الكبير ، فأرسل الى روحه على البعد قصائده (ذبول ازاهر الدفلي ، جدول جفاوه، العش المهجور ، أصيل شط العرب ، مجرى نضير الضفتين). يقول السياب من قصيدته (ذبول ازاهر الدفلى) :

لذع الاوام ازاهر الدّفل — فذوت كما يذوى سنا المقل
كانت تعير النهر حمرتها — فيضيء فيه الموج كالشعل
كم زينت بالامس لبّته — بقلائد المرجان ، والقبل
واليوم اطفىء نورها وخبا — فكأنها لم تند او تمل
واليوم اصبح عقدها بددا — فرأيت جيد النهر في عطل
ولكم مررت بزهرة ذبلت — فبكيت ، حين بكيتها ، أملى

وقد كانت هذه القصائد صورة صادقة عن نفسية السياب ، تظهر فيها احساساته تجاه الطبيعة الفنية ، فكان احساسه بها عميقا، حتى انه مزج بين الطبيعة وبين حبه ، فهذه ازاهر الدفلى الذابلة ذكرته بحبه الذابل ، وبأمله الذي بكاه !

ولذلك انطبعت قصائد السياب الاولى بالرومانسية ، لا ، لانها مذهب شعري اراد الشاعر ان يجاريه ، بل لان الشاعر عاشه بكل دقائق وجدانه ، حتى شرب جسده بأفياء جيكور ، وماء جيكور ، واعناب جيكور ! يؤكد هذا أن الشاعر لم ينفصل عن هذه المرحلة، بل واصلها .. فكانت قصيدته الرائعة (أفياء جيكور المعبد الغريق):

ظل من النخل ، أفياء من الشّجر
أندى من السحر
في شاطىء نام فيه الماء والسحب ...
ظلّ كأهداب طفل هدّه اللعب ،
نافورة ماؤها ضوءا من القمر
أود لو كان في عينيّ ينسرب
حتى أحس ارتعاش الحلم ينبع من روحي وينسكب
نافورة من ظلال ، من أزاهير
ومن عصافير ...

وما ذلك الا لان الشاعر قد انغمر بالطبيعة ، واحس بها عميقا ، فانسابت كلمات ، ثم قصائد ، احتوتها مجموعاته الشعرية .

ومجموعة « قيثارة الريح » تحتوي على قصيدتين طويلتين، الاولى تحمل عنوان « بين الروح والجسد » وهي قصيدة طويلة تقع في الف بيت ونيف ، كان الشاعر قد بعث بها الى الشاعر علي محمود طه المهندس ، ليبت فيها برأي ، ولكن المنية اختطفت الشاعر المهندس، ولم يعرف مصير القصيدة ! ولكن محققي الديوان ، ثبتوا مائةوعشرين بيتا منها جمعت من مسودة للشاعر ، ومن مجموعة « اقبال » الشعرية ثم من احدى الصحف العراقية .

وهذه القصيدة « بين الروح والجسد » تكاد تدور في نطاقين، وتجري على لسان شاعرين ، احدهما يدافع عن فكرة تنزيه الحب من الشهوات ، والثاني لا يرى في الحب الا لذاذات لا تنتهي ، ولايكاد يخرج عن كونه « جسدا » ! واليك اسوق ما يجري على لسان كل شاعر ، فهذا شاعر الشهوة ،يقول :

أهوى مفاتن جسمك المستسلم — وهوى لذائذه مزجن بماتم
جسد عليّ أراه بات محرّما — وعلى حقير الدود غير محرم
لاطوّحنّ بكل عرف سائد — ولاعبثنّ بكل آي محكم

ولاهتكن علـى الفضيلـة سترهـا ولاصفين لما يقـول بـه دمي

امـا شاعـر الروح ، فيقـول :

تأبى (أليس) علـيّ ان تتبسمـا فترد قلبـي هانئا متنعمـا
يا صوبهـا الطرب الحنون ولا أرى انى سمعت ارق منـه وارخما
طف بي، لاقبس من صداك قصائدي واصوغ في شعري من حلاك منمنما
لو عاشق دنف سـواي أحبهـا مثلي ، ترنت له الهوى فتنعما

اما قصيدته « اللعنات » فهي تبلغ حوالي (٣٠٠) بيت ،وتنشر للمـرة الاولـى .

وموضوعها يدور على الخير والشر، ونستلهم نضال الشعوب مـن اجل الرفاه والتقدم ، وهي من القصائد التي تحفل بالتصوير ،والتعبير والالتزام بقضايا الانسان المناضل ، وتعـد من انضج مـا احتونـه مجموعـة « فيثارة الريح » .

والذي يتتبع مسار القصيدة ، يلاحظ ان ثمـة مباشرة فـي الاسلوب ، نبيـن مدى التزام الشاعـر بقضايا النضال ، دون ان يختنى السيف السعيدي ، الذي كـان مصلتا على الرقاب . ولكن السياب لم يجرؤ ـ فيمـا يبدو ـ على اظهار هذه القصيدة ، فبقيت بين اوراقه مطمورة ! ومـا ذلك الا لان اسلوب السياب ،لـم يكـن قد تطور بعد ، بحيث يتيح لـه استعمال الرمـز والاسطـورة اللذين لجأ اليهمـا فيمـا بعـد .

١ـ وقال «اما عن الدنيا فما برحت ايام قابيل سكرى بالدم الجاري
« (....) ادمع الثكلى لآلـؤه (....) اليها ذراعا جائع عـاري
٢ـ وقال ابليس ، والظلماء راعشة من تحته امعنت نحو الثرى هربا
«الارض لي.. ما عليها من ينازعني (...) الخطايا (...) للخنى نصبا

ففي هذه الابيات ، نلاحظ ان الشاعر، قد حذف بعض الكلمات، التي لم يستطع الاسلوب المباشر الا ان يظهرها ، فعمد السياب الـى التعمية ، بوضع الاقواس فارغة الا من نقاط !

ولكن السياب هو الذي يقول (من قصيدة انشودة المطر ـ ديوان انشودة المطر ـ دار مجلة شعر ، ١٦٣) :

أكاد اسمع العراق يذخر الرعود
ويخزن البروق في السهول والجبال ،
حتى اذا ما فض عنها ختمها الرجال
لم تترك الرياح من ثمود
في الواد من أثر .

وفي قصيدة اخرى ، من المصدر ذاته ، يقول السياب (مدينة بلا مطر ، ١٧٢) :

وفي غرفات عشتار
تظل مجامر الفخار خاوية بلا نار ،
ويرتفع الدعاء ، كأن كل حناجر القصب
من المستنقعات تصيح :
«لاهثة» من التعب
تؤوب آلهـة الدم ، خبز بابل ، شمس آذار
ونحن نهيم كالغرباء من دار الى دار
لنسأل عن هداياها .

ويبدو ان قصيدة السياب «اللعنات» قد نظمت ابان التـزام الشاعر السياسي ، وانخراطه في الحركة الوطنية ، ولذلك تعد هـذه القصيدة وثيقة هامة ، قد تلقي الضوء على فكر السياب النضالي . يقول السياب ، وهو يتحدث عن ثورة الفلاحين في الصين الشعبية، هذه الابيات :

هيهات لا انسى ضحى غـرفت آفافه في لهـاث العسجد النـائى
في قرية في شمال الصين لوّنها ايلول ، فاستقبلتها صفحة الماء
وأومض الدرب حتى ذاب آخره ثم اختفى غير ذكرى تقلق الرائي

وفي موضع اخر يقول :

هذا دم الصين ! هذا جهد فائدها ذاك ابتسام الضحايا ! تلك أثمار
تفاحة بعد اخرى تـف حمرتها عن لحظ ايلول فلاحون أحـرار
واخضلت التربة الجرداء ، وزعها بالحق فينا ، وبالقسطاس ثـوار

وينتابني احساس بأن السياب ، لم يضمن قصيدة «بين الروح والجسد» مجموعة أشعار «فيثارة الريح» ذلك لان السياب كان قـد ارسل هذه القصيدة الى علي محمود طه ، ولم يبق عند السياب، غير جزء قليل جدا من القصيدة ـ الملحمة ، بحيث لا يتيح له هذا الجزء اليسير ان يضمنه مجموعة شعرية ! واعتقد ان محققي الديوان قـد فاتهم ذلـك .

وبعد ، فان الديوان قامت باصداره وزارة الاعلام ، بمناسبـة الاحتفال بذكرى وفاة الشاعر ، وهي بذلك قدمت خدمة جليلة لتراث السياب الشعري ، وللادب العربي في شتى اقطاره ، وهو بعد ذلك يزيل كثيرا من الغموض الذي اكتنف حياة السياب الاولى !

بعقوبة

علي حسن

دار الشؤون الثقافية
للنشر والطباعة والتوزيع
أربعون عاماً في خدمة الكتاب
نشراً وطباعةً وتوزيعاً
إمتازت أعمالها واشتهرت
بالدقة والإتقان والسرعة
تتوالى نشاطها بالتعهدات الطباعية المختلفة
بمركزها الجديد: شارع أسعد ملحمة - بناية جريدة التلغراف
ص.ب ٢٠٩١ - هاتف ٢٩٦٨٠٥